

وحدة الحالات النفسية

موضوع الذهن والانتخاب النفسى

« بحث علمي »

لكل حالة نفسية اهتمام بموضوع واحد بل واستغراقا فيه هو خارج عن ذاتيتها وجوهرها وبعبارة أوضح أن موضوع كل حالات الوعي خارج عنها فلا يكون موضوع الخطرة النفسية ذاتها ووجودها . فوظيفة الفكر اذن هي وظيفة عرفانية . وقد اختلفت آراء الفلاسفة منذ القديم في أمر هذا العرفان . فالعقليون يرو أن لمعرفة الشيء يجب أن يتحد الفكر بالموضوع . وهم يرون أن العالم والكون فكر للذات الالهية . والاشياء موجودة لاننا ندرك وجودها . قال شيء اذا موجود في ذهن الفكر . والكون موجود لان الفعل الازلى يفكر فيه . ومن الغريب أن يكون لمثل هذه الافكار الفلسفية الغريبة شبيه في الشرق . فالذين قرأوا كتب صدر الدين الشيرازى الفيلسوف الايرانى (١) يعرفون أنه كان يرى ذلك في نظريته المشهورة في كتاب الاسفار وأنه لا ادراك اى شيء ادراكا تاما يجب اتحاد المدرك مع المدرك أو العالم مع المعلوم .

أما السبب في أننا نرى نفس الشيء دون تغير ظاهرى في ماهيته فهو أولا اجماع الغير على تأييد ما نراه في ذلك الشيء وماهيته وكنهه، وثانيا يقيننا بان ما نعرفه عن الشيء الان هو عين ما عرفناه عنه في الماضي . ومن المسائل الاساسية في الفلسفة وعلم النفس ان ذاتية الشيء وعدم تغير ماهيته في عالم تكثر فيه الماهيات أصل للاعتقاد بوجود حقيقة خارجة عن الذهن . وقد ذهب الاستاذ هرزن الى أن شعور الطفل بوجود شيء مع عجزه عن معرفة ما اذا كان هذا الشيء في الخارج أو الداخل، وشعور الانسان في حالة الانغماء وقت تنعدم فيه الحالات النفسية،

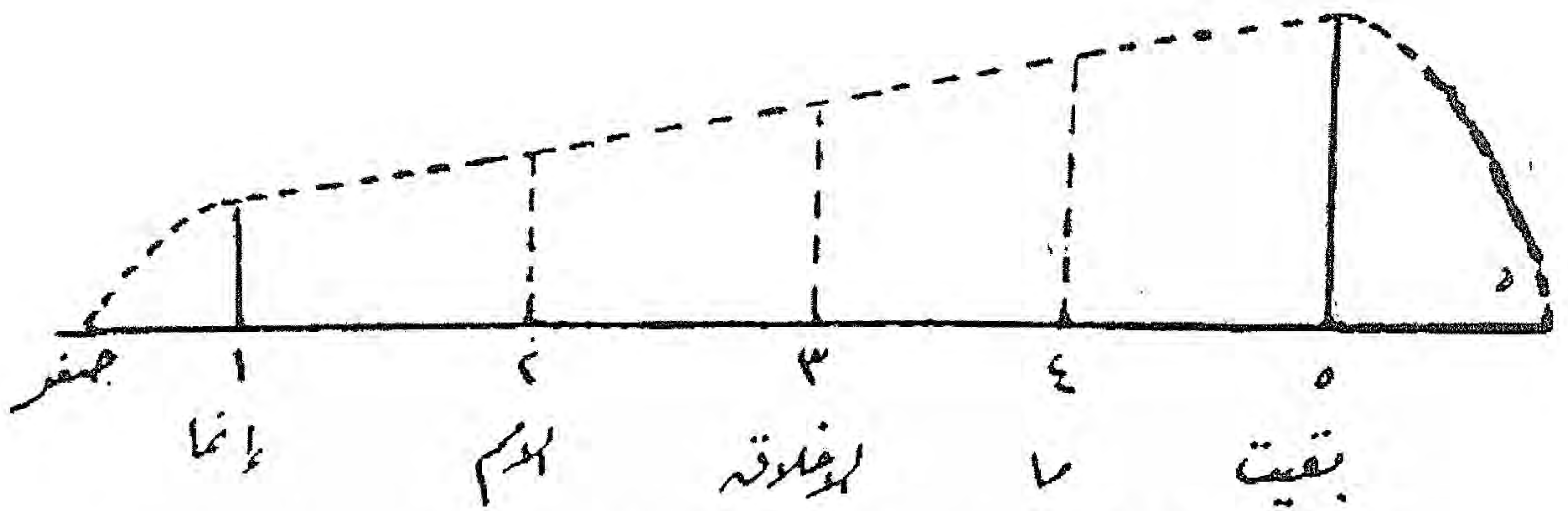
(١) فيلسوف ايرانى عاش في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وعاصر دولة الصفويين في أوائل حكمهم في ايران

يدلنا على أن في نفس كل انسان حالة نفسية هي الشعور بالوجود المطلق . وان ذلك يدلنا على أن لدى انعدام تكرار الخبرة المطلقة في الحياة لا يوجد شيء يقال له حقيقة داخلية أو خارجية بالنسبة للذهن . وقد ذهب كثير من الفلاسفة منهم هارتون وملز (الاب والابن) وغيرهما الى أن وظيفة الفكر العرفانية يلزمها عملية أخرى سابقة عليها وهي عملية التفكير أولا . فيقولون إنه لأجل أن يعلم الفكر بوجود شيء يجب عليه أن يميز أولا بين ذلك الشيء ونفسه . وقد خطأهم الأستاذ جيمس وقال ان القول بأنه حتى يعلم الفكر بشيء ما يجب أن يسبق عرفانه ذلك أنه يعلم ، كالقول تماما باننا لنحلم ونرى رؤى وأحلاما يجب ان نحلم أننا نحلم . ولأن نحلف ونقسم يجب أن نقسم أننا نقسم الخ . وبعبارة أخرى اذا كنا نضطر لتفكير أن تفكر أننا تفكر ، فذلك لا يتفق مع أصول علم النفس . وذلك أن في تلك الحالة يكون عندنا حالتان نفسيتان كل منهما تستلزم عملية نفسية مستقلة عن الأخرى . والحقيقة أن الفكر ربما يميز بين نفسه وبين موضوعه . ولكن لا يلزم ذلك حتما . .

أما كلمة «موضوع» التي أشرنا اليها فليس المقصود بها موضوع الكلام كما هو معروف في علوم النحو والاجروميات وقواعد اللغات . بل يقصد منه في علم النفس الاسم بجميع علاقاته ونسبه التي تكلمنا فيها . وفي هذا العلم أيضا أن كل جملة هي وحدة قائمة بنفسها تمثلها حالة ذهنية واحدة ، اذا قسمناها وفصلنا بين كل كلمة وكلمة يتبدد المعنى بل وينعدم . فاذا قلنا مثلا : « وانما الامم الأخلاق ما بقيت » لا نعني بذلك ان كل كلمة من هذه الكلمات موضوع مستقل في الذهن قائم بنفسه ، بل انا نعني أن كل الجملة موضوع لمكرر واحد ونظرة نفسية واحدة . فالجملة ذات المعنى المفيد اذا هي وحدة قائمة بنفسها ، يقابلها في الذهن وحدة وعي أخرى . على أننا نهمل ذلك في الكلام عادة وكان يجب للابانة وتامم الايضاح أن نكتب الجملة ونوصل الكلمات فيها بشرطات صغيرة علامة على أن كل لفظ فيها غير مستقل وحده عن بقية الالفاظ . فنكتبها مثلا هكذا : و — — — — —
الأمم — الأخلاق — ما — بقيت دفعا للبس . وما يزيد الابهام أيضا تخير الالفاظ وايشار لفظ مخصوص من الجملة كان هو كل الموضوع وإهمال بقية الالفاظ أو اضافة لفظ آخر غير موجود في الجملة .

قلنا ان الحالات النفسية وحدات لا تتجزأ . فأسماء الجمع والالفاظ المؤلفة ليس لكل منهما أكثر من حالة نفسية واحدة بسيطة لا تتجزأ وفيها . وقد وهم بعض العلماء الذين يتمسكون بنظرية تداعي الافكار (١) أى أن الفكر يدغو الفكر في اعتبار أن كل اسم جمع مركب من عناصر بسيطة له في الذهن ما يقابله . بمعنى أن الحالة النفسية أيضا مؤلفة ، لا بسيطة ومركبة على غرار الاسم المركب . بيد أن أصحاب هذا الرأي يلزمهم أن يقولوا بوجود « نفس مجردة » و « أنا » ثابت لا يتغير يربط هذه العناصر النفسية ويؤلف منها ماهية نفسية واحدة . على أننا نعرف أننا تفكر عن الاشياء وفي الاشياء جملة واحدة . وأنه يستحيل علينا ادراك علاقاتها ونسبها مع غيرها من الاشياء اذا كنا تفكر فيها مفردة وواحدة واحدة . فالتداعيون والحسيون يرتكب كلاهما خطأ عظيما في القول بأن حالات النفس مؤلفة تنحل الى عناصر بسيطة مستقل كل منها عن الآخر ، وتؤلف كلها ما يسميه الفيلسوف « كانت » الالماني كثرة . وبينما يرى التداعيون أن تلك الكثرة تؤلف وحدة قائمة بذاتها من المعرفة ، فإن الحسيين « الانانيين » أى القائلين بوجود نفس ثابتة هي « الأنا » ينكرون وحدة تلك الحالة العرفانية ويقولون أن الأصل في المعرفة كثرة مشوشة غير مرتبة يأتي « الأنا » فينظمها ويجعلها صالحة للادراك والتفكير . أما الاستاذ جيمس وغيره فلا يرون هذا الرأي ويقولون . بعدم وجود تلك الكثرة أمام الفكر ، وأنها من الاوهام التي لم يقم عليها أى دليل . بل الواقع أن الاشياء تظهر أمام وعينا في نسبها وعلاقاتها الغير متناهية كل منها في حالة نفسية واحدة ، وفي وحدة عرفانية كاملة غير متكثرة ولا قابلة للتفكك والتحلل . فاذا قلنا مثلا الجملة السابقة : وانما الامم الاخلاق ما بقيت . ومثلناها برسم بياني كهذا مثلا :

(١) تابع المؤلفون في علم النفس هذا المرحوم حسن توفيق العدل في تعريفه لفظة Association في كتابه البيداجوجيا بلفظة . تسلسل الافكار ، والسوريون تابعوا كذلك المرحوم الدكتور دانيال بلس في كتابه الفلسفة العقلية في تعريفه نفس اللفظة بكلمة (اشتراك افكار) . واني أفضل تعريب الاتراك لهذا المعنى بتداعي الافكار لانه أدل على حقيقة اللفظ



وكانت كل كلمة تمثل ارتفاعا وقيمة مخصوصة في الرسم تبعاً لقربها من النتيجة فتكون كلمة « بقيت » أهم ما في الجملة وأكثرها ارتفاعاً لأنها غاية الجملة ونتيجتها. على أنه بالرغم من ذلك لا يمكن أخذ لفظ بمفرده . لأن الفاظ الجملة متصل ببعضها ببعض اتصالاً شديداً . والكل يؤلف وحدة عرفانية واحدة يقابلها في الذهن حالة وعي واحدة . وقد قال الأستاذ أجار « إنا نجعل قبل التكلم ما نريد أن نقوله على أننا ندهش ونمتلىء عجباً عندما ننتهي ونرى ما قلنا وأنها أحسن التفكير » على أن نفس المستر أجار هذا يخطئ في القول بأن كل لفظة تنوب عما قبلها وتخلفه في المعنى وتعي لما سبق . وكذلك يخطئ في أن الألفاظ والمعاني يشرفان على الفكر معاً . ولا عبرة بالدليل الذي يورده تأييداً لمذهبه بأننا كثيراً ما نسمع وننحن مشغولوا الفكر جملاً والفاظاً لا نلتفت لحقيقة معناها إلا فجأة بعد الانتهاء منها . أو أن الفكر يسبق الألفاظ حينما نتعمد التفكير في أمر من الأمور . فحينئذ يرى أن تلك حالات استثنائية . وإن الألفاظ ممتزجة بالمعنى في الحالة الأولى ملقية عليها ظلاً يتوصل الفكر فيها أخيراً إلى التفريق بينها . فيفهم المعنى أولاً ثم يسمع الألفاظ وصددها فيعني معانيها بمجرد الانتهاء من تلفظها . وأما في الحالة الثانية فإن الفكر ما يزال يتكرر في النفس ويستمر فيها حتى يمد تطوع الألفاظ للتعبير عنه . وفي كلتا الحالتين يكون الفكر والافاظ من الحالات الذهنية الثابتة Substantial التي يفكر فيها الذهن كل منها بدوره بحالة وعية مستقلة .

إن كل خطرة من خطرات النفس لأنهم بموضوع كل شيء شامل ويستغرق فيه كل الاستغراق . بل إنها تقصر اهتمامها على جزء من موضوع ما . وبعبارة أخرى

أما تتخير دائما جزءا من موضوع دون اهتمام ببقية أجزائه في نفس الوقت والساعة . فهي في انتخاب وتخير مستمر تنتقل كالفراشة بصورة متقطعة متصلة معا من جزء الى جزء تقبل ما يتلاءم وميلها وتطرح ما يتنافر معها وحياتنا النفسية كلها عبارة عن سلسلة عمليات اختيار

نحن نعرف أن الوصول إلى ادراك العالم الخارجى لا يكون الا من طريق الحواس . ونعرف أيضا ان الحواس هي آلات دقيقة حساسة لا تعمل الا اذا كانت المحسوسات الخارجية لها سرعة موجبة خاصة . فلادراك المرئيات يجب أن تتراوح سرعة الموجات بين عدد من مخصوصين حتى يتيسر لعصب البصر أن يتحرك ويعمل ويدرك . وكذا الأمر في السمعيات والشم . وقس على ذلك في بقية الحواس . وبعبارة أخرى أن الذرات المؤلفة للأشياء في تذبذب مستمر ويصدر منها موجات مستمرة تتفاوت في السرعة . وأنا لاندرك منها الا سرعة مخصوصة . فإذا زادت موجات الأصوات أو قلت عن حد محدود فمن المستحيل على الأذن السماع . وإذا علت أو نقصت أمواج الضوء عن سرعته المعروفة في العلوم الطبيعية، فمن المستحيل على البصر رؤية الأشباح . فعلما إذا بالكون هو علم جزئى لا يكمل الا بالاستنتاج الفكرى والمنطقى . وهنا تظهر أهمية الابحاث الفلسفية . على أنه يشترط فيها أن تكون تكملية للعلم لا متقدمة عليه ، وإلا فلا يؤمن الخلط والعثار

فأعضاء الحس إذا هي أعضاء انتخاب وتخير وانتقاء واستصفاء . انتخاب امواج لها سعة خاصة وكثافة خاصة وسرعة خاصة من بين ملايين الامواج التى يفهم بها الكون . على أن التفاوت الذى نقول بوجوده بين الموجات الصوتية وموجات الحرارة وغيرها إن هو إلا بالنسبة اليها فقط . والا فان الموجات الأثيرية أو الكهربائية المؤلف منها الكون أو المادة ذات اطراد واتصال واستمرار لا يمكن بأية حال من الحالات أن يتصور فيه الأتصال والانقسام أو التقطع . فحواسنا تتخير وتنتقي لنا اذا من بين ذلك المحيط العالمى الهائل الذى يغمرنا بملايين الموجات الذرية كقالت ، جزءا بسيطا يناسب آلات ادراكنا الضعيفة . فالعالم الذى نتوهم أننا نعيش فيه اذا هو عالم مخصوص من المحتمل كثيرا جدا أنه لا يتفق وحقيقة الواقع في العالم الخارجى والوجود العينى .

فحواسنا تتخير أمواجاً خاصة تتناسب مع قواها وتتجاهل أو تهمل حقيقة بقية التموجات التي لا نستطيع ادراكها . فنحن لانعرف العالم إذا معرفة أكيدة مباشرة . وكل مانعرف منه إن هو إلا بعض جزئيات نستقوى بها على استخراج القوانين الجامعة والكميات المطلقة ، اقتصاداً في الفكر وراحة للذهن على أن نخير الأمواج والمحسوسات لا يتوقف فقط على أعضاء حواسنا التي كما قلنا أعضاء تخير وانتخاب . بل نحن نمجى أيضاً عملية فكرية هي الأخرى عملية انتخابية . فنحن نتخير من المحسوسات التي انتخبناها حواسنا جزءاً قليلاً نتخذه موضوعاً للتأمل والتفكير . ثم اننا لانزال آخذين في عملية الانتخاب هذه حتى ينتهي بنا الأمر إلى قصر تفكيرنا على موضوع واحد نهوب اليه كل ملكاتنا وقوانا من بين ملايين الموضوعات التي تفمرنا . فللادراك إذا صليتان الأولى عملية حسية محضة تقوم بها الحواس والأخرى تفسيرية يقوم بها الفكر .

أما مسألة التجرد والانتخاب هذه فهي الأساس لكل تفكير وفلسفة وعلم وثقافة وعمل وعمدين . وبالجمله هي الدعامة التي تقوم عليها الحياة . والناس والأمم يتفاوتون حسب مقدرتهم هذه على التخير والانتخاب . فمن الجماعات من ينتخب ما يضعفه ويشله ويقرضه ويميته ، كما كان يفعل آباؤنا من قبل . ومنها من يوجه كل قوى تخيره صوب ما يقوى الحياة ويممقها كما فعل ويفعل الجماعات المتمدنة المثقفة دائماً

وما ينطبق على الجماعات ينطبق على أفراد الناس . فالمصور والموسيقي والكاتب والفيلسوف كل منهم يعيش في نفس العالم الذي يعيش فيه الآخر . ولكن الفرق بين مناحي تفكيرهم يرجع إلى قوة الانتخاب والتخير هذه . فالمصور لا يرى في الأشياء إلا النسب التي يدرك بها جمال الأشياء . ومعنى ذلك أنه ينتخب من مجموع المرئيات أمامه ما يناسب الصورة التي يريد نقشها فيطرح ما يتنافر مع الذوق وينتقى ما يؤلف وحدة الصورة ويعطيها الجمال المطلوب . وإنى اعتقد فوق ذلك أن مذهب المصورين الطبيعيين والذين يقصرون عمل المصور على نسخ الأشياء نسخاً وتقليدها تقليداً محكماً يخطئون كل الخطأ إذاً ذلك مستحيل فلسفياً ونفسياً .

وليس الامر قاصرا على المصور . فالموسيقار أيضا يعمل هذه العملية الانتخائية . فهو لا يتخير من العالم الذي يعيش فيه الا الأصوات ، ملاحظا النسب بين بعضها البعض متخيرا منها ما يؤلف نغمات خاصة تؤثر في النفس . على أن ما يهم الموسيقي والمصور قد لا يأبه له غيرها . فالسائح مثلا لا يعنى الا بالمعادات والمشارب . والفيلسوف يعيش في عالم خاص من الافكار قد يراه أكثر الناس غير متفق مع ما هو عليه العالم . والحق ان كل انسان يعيش في عالم قائم بنفسه مستقل عن العالم الواقعي ، بل وعن كل عوالم الآخرين

وقد ذهب الفيلسوف شوبنهاور الألماني في فلسفته عن مصير الانسان في العالم وانه مجبر لا اختيار له في شيء . مذهبا خطأ فقال إنه اذا لم يكن أمام الانسان الا طريق واحد لا غير فهو مجبر بالرغم منه ان يسلكه ويتبعه . وقد غفل عن أن الحياة كلها ليست طريقا واحدا يراه المرء لأول وهلة . بل الحقيقة أن ما يهم الانسان في جميع ادوار حياته هو الخلق أو العمل الوقتي الذي يجب أن ينتخبه ويتخيره من بين ملايين أنواع العمل الشتى التي تعرض له . وأما مصير الانسان جملة وماذا سيكون من أمره فلا يفكر فيه احد على الصورة التي يظنها فلاسفة القسر والجبر . لانها لا تتفق وحقيقة الواقع في الحياة ومألوفها والخلاصة أن لكل انسان ولكل حيوان عالم قائم بنفسه مستقل عن غيره كل الاستقلال . على أن سبب ما نراه من تماثل ما يراه بقية الناس هو ان كلامنا يتخير بالتقريب ما يتخير الآخرون . وقد قال الفيلسوف لوتز الألماني ان كلامنا يقسم العالم الذي يعيش فيه الى شطرين . أى العالم من جهة وهو من جهة أخرى . على أنه على الرغم من ذلك الاختيار والانتخاب والتقطع في العمل الفكرى لا يجب أن ننسى أن الفكر كالعالم فلسفيا . أى أنه متواصل مستمر . وعند الاستاذ مورجان انه يجب أن ننشد ذلك الاستمرار والاتصال في حالات الوعي في قاعدة الموجه النفسية التي تتحول بالحركة الفكرية الى رأس موجه اخرى تليها وهكذا على التوالي ، مما يؤلف عادة سلسلة موجات متصلة بعضها ببعض ، وعنده أنه يوجد عنصران في النفس يشيران الى استمرار ذلك المجرى العميق الموجود تحت الدرجات الوعائية والخواطر النفسية . وذلك أولا حالات تحت وعية

Subconscious ثابتة تتكرر في النفس نظراً لاطراد حالة الأُنسجة البدنية
المضوية وكونها على وتيرة واحدة وغير متغيرة ، مما نتج عن استمرار وتكرر
في نفس الحالات النفسية تكررًا نوعيًا . وثانياً وجود مجموعات حالات ذهنية
لا وعية ثابتة بالعادة مؤلفة من عناصر فكرية وثقافية وأدبية منتزعة من البيئة
والمحيط ، تتألف على أساسها أحلامنا وآمالنا في الحياة .

مما سبق يتبين أن دراسة النفس دراسة علمية يستلزم ملاحظة الحالات النفسية ،
وكل ما يمر في الخاطر ويسنح في الذهن ملاحظة دقيقة ، نتوصل بها الى معرفة
القوانين والاصول التي تعمل وفقاً لها . وقد وجدنا أن حالات الذهن أو الوعي
وحدات قائمة بذاتها لا يمكن تجزئتها الى ذرات وعناصر ، وأنها كلها متصلة
تسير في النفس كما يسير مجرى النهر المستمر المتواصل الجريان وأنها ليست في
حاجة الى جوهر موحد هو الأنا أو الروح مثلاً . واني أترك للقارىء أن يستنتج
بنفسه الفرق بين أبحاث القدماء والمحدثين . على أني اعدّه بمعاودة البحث إن
اقتضى الامر ؟
ع . حسين تقى أصفهاني

